١ - بول فرلين

١٨٤٤ — ١٨٩٦

للاستاذ خليل هنداوى

شخصية هذا الشاعر شخصية غريبة ، قد اصطلحت عليها أعاصير الحياة ، وانحطت عليها الآلام ، وهى خلال ذلك تعبث بالألم ، وتنشد الشقاء خالياً من ألحان الشقاء .

كانت حياته الأولى حياة هادئة كالسماء الصافية لا يغشى أديمها شيء . ثم بدأت سحائب سوداء قاتمة تحتشد مَن كل صوب لتحجب هذا الصفاء ، واستطاعت أن تحجبه ، واستطاعت أن تعكر عليه صفاءه . وتجعل حياته الجميلة مأساة عاشت مع نفسه . وترددت ما ترددت أنفاسه فى هذه المأساة التى عصفت به وعصف بها !

رحم الله أبا نواس . فقد كان يدعو الندامى والشاربين الى أن يغبطوه على سكره كلما شرب ، لأنه يرى فى سكرته نشوتين ، ويقول لنداماه : تسكرون أنتم سكرة واحدة ، وأنا أسكر سكرتين .

لى نشوتان وللندمان واحدة !

وكذلك كان (بول فرلين) . فسكره كان متصلا ، وذهوله الروحى كان متصلا ، يقتله السكر الاول ولكن السكر الثانى يحييه . ولعله كلما توغل فى السكر القاتل زادت محبة الحياة عنده فى السكر المحيى ، فألح عليه أصدقاؤه أن يتحرى المرأة فتحرى فوجد ، وشفع له جمال نفسه عن دمامة وجهه ، ولكنه لم يجد الشقاء المرتجى فى المرأة ، فذهب يتحرى ، ولعله تمثل أن شفاء نفسه فى صديق يفهمه ، ولعله اعتقد أنه وجده فى الشاعر الرمزى (أرتور رامبورد) فمال اليه ميلا غريبا . وفتحت قصائد مغاليق نفسه ، فاتصلا بضعة أشهر ثم انفصلا ، ولعل أمر انفصالهما كان كأمر اتصالهما ، لأن الأرواح قد تتجاذب وقد تتدافع . ولكن هذا الانفصال لم يكن الا الى حين ، لأن (فرلين) الضعيف كتب الى صديقه يدعوه ، فلبى الصديق نداءه ، وعاد اليه بقضيان - فى بلجيكا - حياة تصل فيها الظنون ، وتحلق فيها الاوهام . ولكن أمد هذه الصداقة لم يطل . وليته مات موتاً ، ولكنه انقطع انقطاعا . فان (فرلين) عقب سكرة عنيفة قد اقتفى أثر صديقه فى الطريق . وأطلق عليه رصاصة جرحته جرحاً بليغا . شاء ذلك (فرلين) السكير . وشاءت ذلك نفسه الذاهلة الغالبة على نفسه الواعية ، ولعل مبعث ذلك كله هو الخمر ! فلبث عامين يتخبط فى سجن (بروكسل) . حتى اذا انطلق من السجن عاد الى ميدان الحياة يغامر فيه ، ويطلب لنفسه منفسحا ، فشغل مناصب علمية فى أقطار مختلفة ، ثم لجأ الى باريس . لايحمل الا قلبه الشاعر ! وقلب الشاعر أرجوحة تترجح بين الشقاء والهناء ، فمهما عن خطوبه أنه طفق يرى كوكب مجده يسطع ويتألق ، وأن أصدقاءه المعجبين به يشيعون ويظهرون ، فلتفن كل آلام الحياة أمام هذا الأمل المشرق ، ولتقو ما شاءت أشواك الألم ما ظللت هذه الزهرة حية لا تقدر على خنقها .

اما مجده الشعرى الذى خلقه من بعده ، فهو يتجلى فى مذهبه الرمزى الذى لم يتكلفه تكلفاً . وانما كان برموزه يساير روحه التى تأنس بالغموض والابهام ، وتأوى الى عالم ملؤه الاوهام والاحلام .

جرب (فرلين) جل المذاهب الشعرية الشائعة فى عصره ، فسمع الحان (الروماتيكيين) وطرب لها ، ولكنه فر عاجلا وأبى أن يظهر مرارته بهذه الالحان ، فاتى المدرسة (البرناسية) ووجد فيها ضالته ، فنظم قصائد كثيرة خالية من ميول النفس وأهوائها ، وهو القائل :

« أليست من رخام « فينوس ميللو » ؟

فقد فرض على قلبه أن يكون من رخام ايضاً يوم يتلمس هذا الجمال الرخامى .

ولكن (فرلين) المتقلب لايجد ان هذه المذاهب تستطيع أن تتسع لنفسه الفياضة ، فهو يحس - فى نفسه ميولا غامضة تتمشى ، ونزوات مبهمة تتهادى ، فأى فن رخامى يقدر على بيانها ؟ فمال عن المدرسة (البرناسية) ومشى وراء الشاعر (بودلير) مشية المحترس فأخذ من (بودلير) كثيراً . وولد شعر (بودلير) فى نفسه كثيراً وأيقظ فى نفسه كوامن كان يحسها ، ولكن لا يجد الى الافصاح عنها سبيلا .

وبعد أن رأينا (فرلين) يصارع أصحاب الشعر العاطفى الشخصى نراه غدا أوضح الشعراء شخصية وعاطفة فى شعره ، ونرى قصائده الاخيرة انما هى رسالات حقيقية يمكننا أن نعتمد عليها فى درس شخصية الشاعر ، تلك الشخصية المعقدة الجوانب التى اجتمعت فيها

مذاهب متباينة وميول من الحياة متنافرة ، وصدر من اجتمعت فيه هذه المذاهب وهذه الميول تراه طوراً كالرخام تمر به وتضج وتثور فلا يحسها ، وطوراً تمر به مر النسيم فيتأثر ويهيج ، و(فرلين) الرخامى القلب الذى كان يصف الاشياء وصفا متجرداً عن الاهواء يصبح شاعراً محللا نفسياً ، نزل الى أعماق النفوس ، ووصف الكآبة العميقة المتمددة فى حناياها ، ووصف التأملات المشوشة يوم تعبس ، وأحلامها المتبددة حين تطرب . كل ذلك وصفه بعبارات تتمشى مع حركات النفس ، وتنسجم مع الحانها متوافقة متلائمة ، ووراء هذه العبارات إحساس حى دقيق ، ولكنه إحساس لا يظهر فيه الشقاء واضحاً منتصراً غالباً على كل شىء ، ولكنه ذلك الاحساس المفعم بالظلة والمغشى بالابهام ، كأنما يسرى السارى فيه فى جو مبطن بالضباب ، والشاعر بين حقيقة حياته المظلمة الممقوتة وبين تلك التعازى التى كان يرسلها فنه واحساسه أحلاماً جميلة ملونة ، كان يمشى بفنه ، ويحلق فى أفقه ، مبدعاً ذلك الشعر الذى دعاه معاصروه بحق (بالشعر الرمزى) وأضافوا لحنه الجديد الى ألحانهم الشعرية

(وفرلين) بعد هـــذا كله أبدع شعراً جديداً ألبسه مطارف فن جديد ، وخلق للشعر لغة جديدة أجمع النقاد على أنها أسمى لغة شعرية ، ولم يكن (فرلين) بنفسه إلا أنشودة جديدة مرت على أوتار قيثارة الشعر

مختار من شعره

— ١ —

اغنية الخريف

تجرح قلبي تلك الآنات الطويلة
التى ترسلها قيثارة الخريف . . .
وتبعث فى نفسى الكلال والفتور

* * *

تدق الساعة ! فتطفح نفسى بالذكريات القديمة !
فتبهت ملامح وجهى ، وتضيق أنفاسى !
وتذرف عيناى الدموع .
أستسلم الى رياح الخريف !
فتحملنى مثلما تبغى . . كما تحمل الزهرة الذاوية !

— ٢ —

القمر الابيض

هذا هو القمر اللجينى يسطع فى الغابة ،
وتحت كل فرع ، ومن كل غصن
يتعالى صوت هاتف « يا محبوبتى ! »

هذا هو الغدير الرقراق كالمرآة المصقولة ،
تسبح فيه خيالة الصفصافة السوداء
حيث تبكى الربح .
ألا فلنحلم . . . هذه هى ساعتنا
والهدوء الشامل قد غمر الكون ،
كأنما تنزل من اللانهاية المشرقة الوانها
ألا إنها الساعة المنتظرة . . .

— ٣ —

منظر

والبليل القائم على الغصن يخال نفسه
ساقطا فى الماء يخشى على نفسه
الغرق وهو فى ذروة السنديانة
« سيرانو »
تموت ظلال الشجر على صفحة الساقية التى غمرها الضباب
كما يموت الدخان .
بينما الحمائم فى الفضاء تبث الشكاوى
وترسل النجاوى بأمان
أيها المسافر ! إن هذا المرأى الحائل
ليبعث فى نفسك الحزن
ويغادرها تحت الظلال العالية ، كاسفة كئيبة
آمالك الغرقى التى تموت ،

— ٤ —

من السجن

السماء — هنالك — لامعة زرقاء .
وشجرة — هنالك — تهتز غصونها فى الفضاء .

الناقوس تتهادى دقاته فى الاجواء !
والعصفور يرسل شكواه نشيدا وغناء .

البقية على صفحة ٥٨٨